مجلة الدراسات الإسلامية، المجلد 26، العدد (3)، ص ص 17 – 47، الرياض (2014م/ 1436هـ)

الإسلام في الرؤية الأوربية من النشأة إلى عصر النهضة

خالد بن محمد الشنيبر*

جامعة الملك سعود

(قدم للنشر في 23/ 04/ 1435هـ؛ وقبل للنشر في 23/ 05/ 1435هـ)

«البحث مدعوم من مركز البحوث بكلية التربية بجامعة الملك سعود»

المستخلص: منذ ظهور الإسلام، وهو في علاقة شد وجذب مع النصرانية. وفي أثناء تلك العلاقة لم تكن النظرة إلى الإسلام واحدة، إذ كانت في القرون الأولى تميل إلى تصديق صور أسطورية عن الإسلام وعقيدته. فهو دين مكذوب، وتنتشر فيه الوثنية وعبادة الأصنام، ونبيه هو المسيح الدجال الذي يذكره الكتاب المقدس النصراني. لكن هذه النظرة لم تستمر طوال التاريخ، فقد تطورت النظرة بشكل أكثر مصداقية عن ذي قبل عبر القرون، رغم أن هذه التطورات لم ترسم الحقيقة الفعلية. يهدف هذا البحث إلى رصد تاريخي لمعرفة تطورات هذه النظرة، والوقوف على الدعاوى التي تم تشكيلها عن الإسلام. وقد سلكت في جمع مادته العلمية المنهج الاستنتاجي. ومن أبرز نتائج البحث وتوصياته: أن النظرة للإسلام تحولت عبر التاريخ، وكان اهتمامها سابقا بالمسائل الدينية حتى عصر النهضة، أما في العصر الحديث فنجد الاهتمام بجوانب الهيمنة السياسية، والمسائل الحضارية؛ كالحريات وحقوق الإنسان. وتوصي الدراسة أن يتم تناول هذا الموضوع في أطروحة علمية؛ إذ تبين لي فيه آفاق وجوانب كثيرة لم يتم بحثها.

الكلمات المفتاحية: الإسلام مقابل المسيحية، الإسلام والغرب، حوار الأديان، الاستشراق.

Evolution of European Views on Islam

Khaled Mohammed Al-shunyber *

King Saud University

(Received 23/02/2014; accepted for publication 24/03/2014.)

Abstract: This research is concerned with the study of the European views on Islam in the period from the dawn of Islam to the Renaissance period. It aims to identify and study those views and show how they evolved. The study follows inductive and critical deductive approaches. Among the significant research results are the following. The European perception of Islam transformed throughout history. The original focus was on religious issues until the Renaissance. It gave a distorted picture of Islam. The false image gradually changed to some degree, but not completely. The focus shifted to cultural and political issues, such as freedoms and human rights. The study recommends that further studies be conducted on the issues that have not been examined yet.

Keywords: Islam vs. Christianity, Islam and the West, dialogue of religions, Orientalism.

(*) أستاذ مشارك، قسم الثقافة الإسلامية،
كلية التربية، جامعة الملك سعود
الرياض، المملكة العربية السعودية، ص.ب (2458) الرمز (11451)

(*) Associate Professor, Department of Islamic Culture,
College of Education, King Saud University
Riyadh, KSA, p.o box:2458, Postal Code:11451

البريد الإلكتروني: e-mail: Khaled4288@gmail.com

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير المرسلين.

ما زال المسلمون يعانون من التصورات الغربية السلبية للإسلام والمسلمين، والتي ظلت تلاحقهم في بلادهم أو البلاد الغربية. هذه التصورات تبلغ – في بعض حالاتها – حد السذاجة من بعض العوام أو المتربصين في الجانب الغربي؛ إلا أن المفاجئ في عصر العلم والانفتاح الثقافي أن ترى أساطير يؤمن بها أفراد ومؤسسات كنسية أو أكاديمية حول الإسلام، نشأت وترعرعت منذ ظهوره بشكل مشوه جدا، واستمر هذا التشويه عبر القرون في المخيلة الأوروبية.

علاقة الغرب بالدين في الوقت الحالي – وإن كانت ضعيفة – ما زالت تُعد من الموروث الثقافي الذي يرجعون إليه في معرفة المخالفين لهم فكريا وعقديا. لقد كان هذا الموروث مليئا ومشحونا بكثير من الأساطير حول الإسلام، مما حمل بعضا من الباحثين الغربيين المتأخرين على انتقاد هذا التوجه، ووصمه بعدم الحياد. ومع ذلك ما زالت الصورة السائدة عن الإسلام تفتقر إلى كثير من الحقيقة.

بالتأكيد ليس كل ما يُقال عن الإسلام في الغرب يُعد أسطورة، بل هناك أيضا جانب من الحقيقة التي لا يرى فيها المسلمون باطلا ولا غضاضة. فما زال الغرب يرى أن الإسلام يفرق بين الجنسين في بعض الجوانب، ويقر بتعدد الزوجات، ويمنع حرية انتقاد الإسلام، وغير ذلك كثير، وما زال المسلمون لا يرون في هذا غضاضة، وإن كان في التصور الغربي يُعد انتهاكا لحقوق الإنسان، وسلبا للحرية المطلقة له حسب تعبيراتهم.

الرؤية حول الإسلام في الغرب ليست واحدة، لكنها تتأثر بفترات الصراع، وبالخوف على الصدارة الحضارية، ليس في الوقت الحاضر فحسب، بل منذ أن سمع الغرب ممثلا في قيادته الكاثوليكية عن الإسلام، يوم أن كان رجال الدين الكاثوليك هم القادة الفكريين، والداعمين للقيادة السياسية حينا، أو القادة الفعليين حينا آخر. لا شك أن النظرة إلى الإسلام تسير عبر القرون إلى صورة أكثر إيجابية، وإن كانت في بعض الفترات – خاصة فترات الصراع – تنكص على عقبيها إلى الصورة الأسطورية.

من هذا المنطلق؛ أردت استكشاف هذه النظرة إلى الإسلام وتحولاتها عبر القرون، بعد أن كانت موغلة في التشويه والجهل العميق، إلى ما وصلت إليه في القرون الأخيرة. قد يكون من الغريب وجود من يرى إلى هذا اليوم أن محمداً (ﷺ) هو أحد أصنام العرب، أو هو الدجال!!، مستبيح الأعراض!!، وفي نفس الوقت نجد من المعاصرين منهم من يرى فيه أنه من عظماء التاريخ الأتقياء المخلصين رغم عدم إيمانهم بنبوته.

مشكلة الدراسة:

علاقة الإسلام بأوروبا النصرانية عمرها قرون، هذه العلاقة كان لها تجاذبات كثيرة نظرا لحرص المسلمين والنصارى الأوروبيين على فرض الهيمنة. ونتيجة لذلك تكون في عقل الأوروبيين صور متنوعة عن الإسلام وعقيدته، هذه الصور كانت غاية في التشويه والجهل إلا أنها مع مرور الوقت تطورت بشكل أفضل من ذي قبل. وتأتي هذه الدراسة لرصد هذه الصورة، وأسبابها، وتسلسلها.

حدود الدراسة:

بداية من الفترة التي بدأ الغرب الأوروبي يسمع بها عن الإسلام، وهي من القرن التاسع إلى القرن السابع عشر الميلادي.

منهج الدراسة:

اعتمد البحث في دراسته للتحولات في الرؤية الأوروبية على المنهجين: الاستقرائي، والاستنتاجي النقدي. أما الغرض من المنهج الاستقرائي فكان رصد علامات هذه التحولات في الرؤية الأوروبية، وكانت وظيفة المنهج الاستنتاجي العمل على محاولة الكشف عن الأسباب والمظاهر، ونقد تلك الرؤى السلبية.

الدراسات السابقة:

كثيرة هي الدراسات العربية التي تدافع عن الإسلام كشريعة ونبوة، أما ما يتعلق بجانب توضيح النظرة الأوروبية إلى الإسلام، وسبر تحولاتها عبر القرون وأسبابها، فمن النادر جدا أن تجد كتابات عربية في ذلك. وأشهر ما كتب في هذا الموضوع كتابات إنجليزية لعدد من الدارسين الغربيين، بأساليب ومتعلقات متنوعة، نظرا لتوسع جوانب هذا الموضوع بشكل كبير، سواء على مستوى العقيدة أو التوجه السياسي والعسكري أو على مستوى الهيمنة الفكرية. لذا تجد ثمة تنوعاً في الكتابة حوله[1].

يبقى أن الدافع الأكبر للكتابة حول الموضوع – وهو الأمر الذي لم أجده في الدراسات الأخرى – صعوبة عرض التسلسل التاريخي للنظرة الأوروبية التاريخية للإسلام، وأهم من ذلك خلو هذه الدراسات – حسب اطلاعي – من الأدلة التي تنقض النظرة الغربية الوهمية عن الإسلام. بمعنى أن كثيرا من الرؤى الأسطورية الغربية حول الإسلام ونبيه يوجد في نصوص الإسلام المقدسة (القرآن الكريم والسنة النبوية) ما ينقضه تماما! ومع ذلك لم تظهر في تلك الكتابات رغم أهميتها الجوهرية، حيث إنها تنطلق من مسألة إثبات بطلان الضد بالدليل. إضافة إلى أن مؤلفي تلك الدراسات في الغالب يثبتون الصواب إجمالا من غير معرفة تخصصية بالنصوص الإسلامية.

(1) رجعت في هذه البحث لعدد من هذه الدراسات، ووضعت ترجمة عناوينها بين معكوفين [.....].

وإذا تقرر ما سبق؛ فيمكن الإشارة لأبرز تلك الكتابات التي أصبحت مصدرا للباحثين في الرؤية الأوروبية القديمة للإسلام:

1 – الإسلام في الفكر الأوروبي، ألبرت حوراني (1993م)، والمؤلف إنجليزي الجنسية والمولد، من والدين لبنانيين، عمل أستاذا في عدة جامعات غربية، أشهرها «أكسفورد». الكتاب ضخم، لكن ليس المقصد من تأليفه تحرير دراسة مستقلة في الموضوع، بقدر ما هي محاضرات ومقالات كتبها حوراني في أزمنة مفرقة، وجُمعت في كتاب حمل هذا الاسم. لذلك لا تجد فيه تسلسل الفكرة حول الإسلام، فضلا أن يورد فيه النصوص الإسلامية المعارضة للروية الأوروبية حول الإسلام، فضلا أن التحليل للأفكار افتقد للرؤية الإسلامية للموضوع.

2 – صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى (2001م)، ريتشارد سوذرن، وهو بريطاني الجنيسة والمولد، وأستاذ تاريخ العصور الوسطى في جامعة أكسفورد. وهو في ظني من أدق ما نُشر بالعربية عن صورة الإسلام المغلوطة في التصورات الغربية، وكثيرا ما يُحيل عليه الباحثون في هذه المسألة. يميزه في ذلك الإيجاز وجمال العبارة ووفرة المصادر. وقد ترجم إلى العربية في ترجمتين: الأولى تحمل العنوان: نظرة الغرب إلى الإسلام في القرون الوسطى، ترجمة د. علي فهمي خشيم، ود. صلاح الدين حسني، مكتبة دار الفكر بليبيا 1975م، والثانية بواسطة رضوان السيد عن دار المدار.

وهذه الدراسة تفتقد إلى التحليل من خلال وجهة نظر إسلامية، إضافة إلى سردها للتهم والتصورات المغلوطة عن الإسلام من غير إيراد إثباتات من داخل المصادر الإسلامية ترد على الأفكار المغلوطة. لكن يبقى أنها دراسة مميزة من مؤرخ متميز.

خطة الدراسة:

وتشمل ما يلي:

- **المقدمة.**
- **المبحث الأول: التصورات الأسطورية في الإسلام، وفيه مطلبان:**
  - المطلب الأول: المصادر النصرانية داخل المجتمعات الإسلامية، وفيه:
    - أولاً: دور النصارى الشرقيين (العرب والبيزنطيين).
    - ثانياً: المرحلة الإسبانية.
- **المطلب الثاني: الأفكار المغلوطة في الداخل الأوروبي: الأسباب والنقض.**
- **المبحث الثاني: بدايات فهم الإسلام في الداخل الأوروبي.**
- **المبحث الثالث: شخصيات نهاية القرون الوسطى**

وعصر النهضة، وفيه ثلاثة مطالب:

- المطلب الأول: جون ويكلف.
- المطلب الثاني: مارتن لوثر.
- المطلب الثالث: عصر النهضة.

***

المبحث الأول

التصورات الأسطورية في الإسلام

تمهيد:

إن القرون الأولى للإسلام في العقلية الأوروبية كانت مشوهة بشكل بالغ، يمكن وصفها بأنها أسطورية بلا أي حرج، والمراد بها تلك التصورات الموغلة في الانحراف، والبعد غير المنطقي عن حقائق الإسلام. وتصوير هذه المرحلة بالمرحلة الخرافية أو الأسطورية ليس بمستغرب عند الكتبة الذين تحدثوا عن هذه المرحلة كما سيأتي تفصيله.

انطلقت هذه الفكرة من مرحلة ما قبل القرون الوسطى الأوروبية، وساهم فيها بشكل فعال النصارى العرب؛ فهم الذين صوروا الإسلام – الذي عاشوا في دولته – للدولة الرومانية البيزنطية، والتي كانت تحمل آنذاك لواء الدفاع عن النصرانية.

لقد كانت تلك التصورات الأولية من النصارى العرب مصدرا ملهما لكثير من الآراء المغلوطة – بشكل قد يثير السخرية والعجب في آن واحد – حول هذا الدين وحول نبيه محمد ﷺ.

يصف «ريتشارد سوذرن»[2] – أستاذ تاريخ القرون الوسطى – تلك الفترة الأولية بحقبة الجهل، سواء ذلك الجهل الناجم عن ضيق أفق المخيلة النصرانية وتحجرها، والذي يحتل القرون الأربعة الأولى منذ العام 700م أو الجهل الناجم عن خيالات وهمية واسعة، والتي احتلت الفترة من 1000 – 1140م. والمعنى هنا أن العقلية الغربية كانت تتوهم أشياء خيالية هي ليست موجودة أصلا في الإسلام.

يؤكد ما سبق؛ أن المؤلفين الغربيين في الفترة قبل 1100م لم يعرفوا شيئا عن الإسلام سوى كونه دينا «غير المسيحية»، ولم يكن سوى رقم في قائمة الأعداء الطويلة، والتي تخلط بين وثنية الأوروبيين الشماليين قبل تحولهم للمسيحية وبين توحيد الإسلام، مع اتساع الفرق التوحيدي! ولم يكن هذا الدين الجديد «الإسلام» يختلف عن المانوية[3] التي واجهتها المسيحية قديما. نعم كانت

(2) صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى، ريتشارد سوذرن ص (50).

(3) أصحاب ماني بن فاتك الحكيم الذي ظهر في زمان سابور بن أردشير الملك الساساني في فارس، وقتله بهرام بن هرمز بن سابور، وذلك بعد عيسى بن مريم عليه السلام. أحدث دينا بين المجوسية والنصرانية. وكان يقول بنبوة المسيح عليه السلام ولا يقول بنبوة موسى عليه السلام. راجع: الملل والنحل، للشهرستاني (1/ 243).

هناك محاولات لفهم الإسلام من خلال نصوص الكتاب المقدس، حيث أشار إلى «السرازانيين»[4] وهم إحدى السلالات التي يذكرها العهد القديم، وحاول رجال الدين تفسيرها وإرجاعها إلى العرب، لكونهم يرجعون إلى نسل إسماعيل عليه السلام. ويبدو أن محاولة فهم الإسلام من خلال تفاسير رجال الدين كان لها أثر بالغ في تطور فهم أوروبا للإسلام، فقد كان الكتاب المقدس الأداة الفكرية الوحيدة الفعالة في أوروبا في أوائل القرون الوسطى[5].

المطلب الأول: المصادر النصرانية داخل المجتمعات الإسلامية:

أولاً: دور النصارى الشرقيين (العرب والبيزنطيين):

من المهم الإشارة – كما يقول المؤرخ الروسي المعاصر جورافسكي[6] – إلى أن التصورات الأوروبية عن الإسلام، وإن كانت تشكلت في الفترة ما بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر للميلاد؛ إلا أنه يجب الإشارة إلى أن أبرز مصادر تكوّن هذه التصورات جاءت على خلفية التفاسير النصرانية الشرقية للعقيدة الإسلامية.

وتعد المؤلفات التي وضعها يوحنا الدمشقي[7] (ت750م) من أبكر الدراسات النصرانية الشرقية عن الإسلام[8]؛ فقد أظهر الرفض للدين الإسلامي، ومناقضته للعقائد النصرانية. واللافت أنه لم يصور

(4) كتب جون تولان John Tolan دراسة متخصصة [السرازانيين: الإسلام في المخيلة الأوروبية في القرون الوسطى].
«Saracens: Islam in the medieval European imagination»
يقول تولان في مقدمته ص (15) شارحا الأوصاف التي تُعطى للمسلمين في ثقافة القرون الوسطى: «علاوة على أن كتاب النصارى في القرون الوسطى لم يتحدثوا عن الإسلام أو المسلمين ككلمات معروفة (مع وجود استثناءات محدودة) في اللغات الأوروبية قبل القرن السادس عشر. بدلا من ذلك؛ أشار الكتاب النصارى إلى المسلمين باستخدام تعابير عرقية مثل: عرب، أتراك، مغاربة، سرازان «سراسان». وغالبا كانوا يدعونهم إسماعيليين، إشارة إلى إسماعيل في الكتاب المقدس، أو هاجريين من هاجر «والدة إسماعيل».

(5) راجع: صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى، ريتشارد سوذرن ص (52).

(6) راجع: الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى الحوار والتفاهم، أليسكي جورافسكي ص (68 – 72).

(7) الدمشقي يستحق دراسة مستقلة لمعرفة موقفه من الإسلام، وقد عُرف الدمشقي بعدة أسماء، ويذهب جوزف نصر الله إلى أن الدمشقي حمل اسمين: «أحدهما يوناني (يوحنا)، والآخر عربي (منصور). راجع: منصور بن سرجون المعروف بالقديس يوحنا الدمشقي، جوزف نصر الله، ترجمة أنطون هبي، منشورات المكتبة البولسية: بيروت: 1991. ص (81). ويقول عنه – أيضاً – في صفحة غلاف الكتاب: «يعتبره اللاهوتيون البيزنطيون والغربيون معلمهم والملقن الأول للطريقة المدرسية (السكولاستيك). كتاباته معين لا ينضب. اغترف منها الفلاسفة واللاهوتيون بسخاء».

(8) حول جهود يوحنا الدمشقي يُراجع: [بحثا عن محمد، تأليف: كلينتون بينيت].
In search of Muhammad, Clinton Bennet, p 77.
وأيضا: [الإسلام والغرب: صناعة صورة، تأليف: نورمان دانييل].
Islam and the West: The Making of an Image, Norman Daniel, p. 13 – 14.

الإسلام على أنه دين وثني، كما فعل العديد من الأوروبيين الأوائل، ولكنه صور محمدا ﷺ على أنه كاذب، وليس بنبي، ولا يعد عمله (يقصد القرآن!) سوى جمع لقصاصات من العهد القديم والجديد، مزج بينهما، وأخرج القرآن، وكان ذلك يعتمد على لقاء جَمَعَه ببحيرى الراهب النصراني المشهور[9]. هذا اللقاء استُغل كثيرا لترويج التصور النصراني الأولي لمعرفة الإسلام، لكن يبقى أن التصور النصراني الشرقي للإسلام يبدو – على ما فيه من تحريفات – أقرب وأصوب من تلك التصورات الغربية في بدايات القرون الوسطى؛ بسبب أن الصيغة النصرانية البيزنطية مؤدلجة بصورة واضحة؛ نظرا للتقارب مع المجتمعات الإسلامية، فضلا عن أنها تقدم العقائد الإسلامية بصورة مشوهة بشكل حاد – كما سيأتي بيانه –. هذه الصورة البيزنطية هي التي كانت مؤثرة في الوعي الأوروبي أكثر من تلك الصورة التي تحملها كتابات النصارى العرب في الدولة الإسلامية، والتي لم تكن آنذاك متداولة في الغرب الأوروبي.

يشير رولين أرمور (Rollin Armour)، أستاذ المسيحية في جامعة مرسر بالولايات المتحدة، بشكل واضح إلى دور قام به النصارى القاطنون بلاد الإسلام في تشكيل التصورات المبدئية حول هذا الدين، وذكر عدة أسباب في ذلك، منها: شعورهم بالخطر الكامن الذي شكله الإسلام على النصرانية. ربما كانت قدرة الإسلام على التغلغل في النواحي الاجتماعية والاقتصادية والعقدية لها أثر واضح في الخوف من هذا الدين الجديد على المجتمع النصراني[10].

وهذه الفقرة – أعني التهديد بآلات تفكك الكيان الاجتماعي والاقتصادي وغيره – تبدو ذات أهمية لإيجاد مجتمع يندمج مع نظام الدولة الإسلامية، لكنه قد يعنى مستقبلا انجراف الأتباع مع الدين الجديد الذي يملك القوة السياسية، فضلا على وجود مقومات الدين الروحي البديل عما هو موجود في المجتمع النصراني. إذًا لم يكن التهديد العقدي للنصرانية هو مصدر القلق الوحيد للنصارى في البلاد الإسلامية، بل هناك مصادر أخرى، أيضا.

ثانيا: المرحلة الإسبانية:

كان الدور الإسباني إبان دولة الإسلام في الأندلس فاعلا ومؤثرا؛ نظرا للتداخل الحاصل بين النصارى والمسلمين هناك. وبرغم هذا الاندماج

(9) راجع قصة بحيرى وتفاصيلها عند ابن هشام، في السيرة النبوية (1/ 180)، وكلاما حول اسمه وشخصه في الروض الأنف، للسهيلي (2/ 140)، وأشير إلى أن بعض المصادر التاريخية الإسلامية تصفه بأنه كان يهوديا.

(10) يراجع: [الإسلام والمسيحية والغرب التاريخ المضطرب، تأليف: رولين آرمور]:

Islam, Christianity, and the West a troubled history, Rollin Armour, p. 50.

والتداخل فلم تكن صورة الإسلام واضحة؛ بل كانت تحت مؤثرات تعصب واضح ضد الإسلام أو المستعمر الجديد، كما يصورونه[11].

هذا التصور الإسباني في مرحلة الصراع العسكري الإسلامي النصراني؛ أشار لدوره بعض الباحثين في تكوين النظرة الأولى عن الإسلام في المخيلة الغربية في أوروبا. ولم تخل هذه الصورة من مبالغات فظة وغريبة برغم ذلك الاندماج الاجتماعي، فقد تم توصيف حال النبي ﷺ بالعدو الأكبر، أو المسيح الدجال المذكور في الكتب المقدسة عند النصارى، والذي سيكون عدوا للمسيح، فضلا عن إعطاء كثير من التصورات المشكوكة تماما حول هذا النبي الجديد[12].

ويتعجب جورافسكي من أنه بالرغم من كون الإسلام عقيدة توحيدية، إلا أنه لم يُلحظ ذلك إلا بصعوبة في أوروبا، حيث إن احتلال إسبانيا وصقلية من طرف العرب لفت الأنظار إليهم بشكل واسع، ولكن ظهورهم على الأراضي الأوربية نُظر إليه في البدايات الأولى على أنه كارثة مماثلة، أو أشد، للاجتياحات التترية للمراكز الحضارية في العالم، وتم تصوير سمعتهم بهذا كثيرا، بالرغم من أن الحضارة العربية اتسعت وعمت وتطورت، حتى اشتكى أسقف قرطبة عام 854م من كون النصارى يقرؤون الأشعار والحكايات العربية، ويدرسون مؤلفات الفلاسفة واللاهوتيين العرب، بينما يتجاهلون تماما التعليقات والشروحات اللاتينية على الكتاب المقدس في إشارة إلى قوة الحضارة الإسلامية وأثرها على غيرها[13].

هذا الخوف الحضاري أدى بشكل كبير إلى المبالغة في تصوير الإسلام، والبحث عن كل ما يتوهمونه عيبا فيه، واللجوء إلى كتابات غير إسلامية نتيجة لإحساس بعض الأسبان النصارى بحجم الهزيمة العسكرية والثقافية تجاه المسلمين، فضلا عن اختراع أمور كثيرة

(11) كتب Kenneth Wolf فصلا مفصلا حول النظرة الإسبانية الأولى، بعنوان: [النظرة المسيحية للإسلام في أوائل القرون الوسطى الأسبانية].
Christian Views Of Islam in Eearly Medieval Spain.
تجده كاملا، ضمن كتاب: [مفاهيم العصور الوسطى المسيحية من الإسلام].
Medieval Christian Perceptions of Islam, John V. Tolan (Edi.), pp. 85 – 108.

(12) يراجع: [بحثا عن محمد].
In search of Muhammad, Clinton Bennet, pp 80 – 82.
وهذا الكتاب كُتب بيد مسيحي محب للمسيح كما يصف نفسه، لكنه في نفس الوقت قدم دراسته هذه (بحثا عن محمد) محاولة منه للوصول إلى الحقائق حول نبي الإسلام، وبواقعية تامة. وفي نفس الوقت فقد كتب كتابا آخر يحمل عنوان (بحثا عن عيسى)، ويمكن الاطلاع أكثر على مراجعة علمية لهذين=
=الكتابين بعنوان:
Review of Clinton Bennett, In Search of Muhammad and In Search of Jesus, Ahmad Shafaat. See: islamicperspectives.com

(13) الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى الحوار والتفاهم، أليسكي جورافسكي ص (45).

ليست من الإسلام أصلا، وإنزال نصوص الفتن والقيامة والدجال على الإسلام ونبيه. الغريب أن هذه الأفكار المنحرفة استمرت في الداخل الأوروبي في تلك الفترة برغم أن المسلمين كانوا يعيشون في البيئة الأوروبية (الأندلس)، وهذا الأمر يؤكد أثر التطرف الأوروبي في فهم الإسلام آنذاك[14].

المطلب الثاني: الأفكار المغلوطة في الداخل الأوروبي: الأسباب والنقض:

إن الأفكار الأسطورية التي انتشرت عن الإسلام ونبيه في القرون الوسطى متعددة ومتنوعة ومملوءة بالتشويه الكبير. لم يعد هذا خافيا حتى في تلك الدراسات التي تناولت الموضوع من خلفيات غير دينية، أو حتى خلفيات نصرانية اعترفت بمدى الخرافة المرسومة والمتعمدة – نتيجة للتعصب – في تصوير هذا الدين ونبيه ورسالته.

أسباب هذه الأفكار متعددة، لكن يمكن أن نجمل ذلك في ثلاثة محاور: أولها: التحدي الحضاري، ومخافة الدولة الإسلامية. الثاني: تشويه الإسلام بدعوى الوثنية. الثالث: الحياة الجنسية لدى المسلمين!

التحدي الحضاري:

لقد أدرك المؤرخون والمفكرون النصارى مدى التحدي الذي واجه ديانتهم إبان تأسيس الدول الإسلامية العظمى. وبحسب كرستوفر داوسون (Christopher Dawson) (1970م) – أحد أبرز المؤرخين الكاثوليك في القرن الماضي، والمتخصص في تاريخ أوائل القرون الوسطى – فإن الدولة الإسلامية «غير الطيبة!» – حسب زعمه – شكلت التهديد الكبير للمملكة النصرانية؛ لأنها احتلت عدة ممالك، ليس في سوريا فقط، بل في مصر وشمال أفريقيا، أيضا[15].

هذه التهديدات الإسلامية التي تسامع بها الغرب الأوروبي كانت سببا لترويج أية أفكار مغلوطة عن الإسلام داخل البيئة الأوروبية، وعادة ما تنشأ الأفكار الأسطورية عندما تحس فئة أو أمة بأنها مهددة من أي كيان آخر، فتكثر التساؤلات حول هذا الكيان الجديد، الأمر الذي يساعد على قبول أي توصيف حتى لو كان أقرب للأساطير، كما وقع مع الإسلام، ويقع مع غيره.

يشير بعض الدارسين لتصورات القرون الوسطى عن الإسلام إلى ثلاثة مكونات أسهمت في تشكيل هذه القوالب النمطية، وهي: المكونات الميثيولوجية (الأسطورية)، واللاهوتية، والعقلانية. ومن ذلك – مثلا –: الأدب الأوروبي في القرون الوسطى، كان بيد

(14) راجع تفصيلا في تقلبات المرحلة الإسبانية في: صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى، ريتشارد سوذرن ص (53 – 66).

(15) يراجع: [المسيحية والثقافة الأوروبية (مختارات من أعمال كرستوفر داوسون)].
Christianity and European Culture (Selections from the Work of Christopher Dawson), Gerald J. Russello, p. 39.

رجال الدين النصارى، الذين استندوا في فهم الإسلام لمصادر متنوعة ومتمايزة جدا؛ كالقصص، والحجاج، والمؤلفات الجدلية الإسلامية النصرانية. لكن الأمر المثير هنا؛ هو انتزاع المعلومة المقدمة في معظم الحالات من سياقها الأصلي، ثم تقديمها إلى القارئ الأوروبي بطريقة محرفة. وبهذا الشكل تم تشويه كثير من الحقائق والوقائع بصورة متعمدة في سياق البحث عن حلول سريعة «لمشكلة الإسلام»[16].

وهناك عدد من الآراء تحدثت عن أثر الحروب الصليبية في رسم صورة الإسلام في خيال الأوروبيين، وقد أوجدت هذه الحروب «حاجة كبيرة وملحة للحصول على صورة كاملة ومسلية ومرضية لأيديولوجية الخصوم. وكان رجل الشارع يرغب في صورة تبين الصفة الكريهة للإسلام عن طريق تمثيله بشكله الفج، على أن تكون في الوقت نفسه مرسومة بشكل يرضي الذوق الأدبي الميال إلى كل ما هو غريب.... فقد اختلطت الروايات المحضة التي كان هدفها الوحيد إثارة اهتمام القارئ - على نسب متفاوتة - بالعرض المشوه للعقيدة التي ألهبت حقد العدو، ووصلت الملاحم إلى أعلى ذرى الابتكارات الخيالية. فقد اتهم المسلمون بعبادة الأوثان، وهم الذين اتهموا المسيحيين بتعدد الآلهة والشرك. كان (في عرف تلك الملاحم) محمد [ﷺ] هو صنمهم الرئيسي، وكان معظم الشعراء الجوالة يعتبرونه كبير آلهة السراسنة!»[17].

ربما لا نستغرب من هذا الأسلوب في التشويه؛ فوجود عداوات أو تهديدات تتعرض لها أي فئة؛ يساعد على بث التصورات المغلوطة بشكل سريع، وهو أحد الأساليب للحرب والدفاع، ونظرا للحالة التي تمر بها الأمة، فإن الباب يكاد يُغلق أمام أي مواجهة تريد بيان الحقيقة، نظرا لاعتقاد البعض أن مجرد توضيح مصدر الخطر هو بحد ذاته يكون خذلانا للجماعة.

قد تكون المخيلة الأوروبية متخوفة كثيرا من المد الإسلامي الذي كان يتوسع بشكل مبهر، وفي فترة وجيزة من السنوات استطاع إنشاء أكبر الإمبراطوريات في العالم. هذا التخوف ساهم - بلا شك - في إساءة فهم حضارة الإسلام، ووصمها بأبشع ما يمكن تصوره، بل امتدت الحملة إلى أمور يظهر تناقضها بشكل صريح مع مفاهيم الإسلام نفسها.

ومع أن الإسلام وكتابه القرآن كان يتكلم بلغة وأسماء موجودة في الكتب النصرانية المقدسة، حيث الأسماء والأماكن والرموز فيها نوع اشتراك، ونوع

(16) راجع: تطور تصورات الفكر الاجتماعي لأوروبا الغربية في القرون الوسطى حول الإسلام، م. أ. باتونسكي (القرن الحادي عشر - الرابع عشر الميلادي) (باللغة الروسية)، نقلا عن: الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى الحوار والتفاهم، أليسكي جورافسكي ص (76).

(17) تراث الإسلام، جوزيف شاخت (1/ 33 - 34).

تكريم، ومع ذلك اعتُبر هذا الدين بدعة مغلظة. ويبقى أن الفكرة الرئيسة في ذلك هي مسألة المسيح وألوهيته التي كان القرآن كثيرا ما يرفضها بشدة وبتهديد ووعيد. ربما كانت هذه النقطة أكثر النقاط تصادما مع الفكر النصراني السائد في تلك الفترة. وهذه الأخطار التي شكلتها الدولة الإسلامية – فضلا عن معتقدات المسلمين حول المسيح – قدمت الطريق لتشكيل صورة مشوهة عن المسلمين في أذهان الأروبيين.

دعوى الوثنية:

يذكر رولين أرمور (Rollin Armour) أن: «العنصر الأساس في الحملة ضد الإسلام كانت بالافتراء على محمد (ﷺ). بالرغم من أن المسلمين لا يعتبرونه إلها، بل ذكروا أنه رسول الله»[18].

ويشير تولان (Tolan)، وهو مؤرخ العلاقات الدينية والثقافية بين العالمين العربي واللاتيني في العصور الوسطى، في دراسته الواسعة عن مصطلح السرازانيين (لقب للمسلمين) إلى تهمة الوثنية الإسلامية في المخيلة الأوروبية الأوسطية، وكيف أن تراثهم الفكري والشعري والديني يشير إلى وثنية عميقة وعبادة للأصنام[19].

وينتقد المفكر المعاصر وأستاذ الأدب الألماني «هوبرت هير كومر» هذا التوجه الأوروبي بأنه: «من غرائب الأوهام المسيحية الكاذبة»، ويذكر أن الأغنية الفرانسية التي كتبها رولاند (حوالي سنة 1100م) ذكرت أسماء أصنام المسلمين: أبوليين Apollin، وتيرفاجانت Tervagant، وماحوميت Mahumet (محمد ﷺ). وهذا الثالوث تم تطويره في الترجمة الألمانية لملحمة رولاند Rolandslied التي نشرها القسيس كوراد حوالي 1170م والذي حول الملحمة إلى رواية صليبية تقول: «يدعو الكفرة (أي المسلمون) آلهتهم قائلين: «على هؤلاء الذين يريدون الخلاص أن يجتمعوا معا. هو تيرفاجانت الرحيم، فلنعبده، وكذلك ماخميت (محمد) العزيز، وأبوللو المجيد. ولنعبد أيضا المخلصين الآخرين من الآلهة الخالدة»»[20].

ويرى بعض الباحثين أنه – بالرغم من أن عددا من نصارى القرون الوسطى كان لهم رؤى أسطورية حول الإسلام كالوثنية وعبادة محمد – لم يكن خافيا على بعضهم أو أكثرهم التوحيد الإسلامي، لكن يبدو أن

---

(18) [الإسلام والمسيحية والغرب التاريخ المضطرب]:
Islam, Christianity, and the West a troubled history, Rollin Armour, p. 50.

(19) في: [السرازانيين: الإسلام في المخيلة الأوروبية في القرون= =الوسطى].
Saracens: Islam in the medieval European imagination, John Tolan, pp. 105 – 135

(20) صورة الإسلام في التراث الغربي (دراسات ألمانية)، ترجمة: ثابت عيد ص (25 – 26). وراجع أيضا: تراث الإسلام، جوزيف شاخت (1/ 32).

عدم وجود الرغبة الصادقة في الوصول للحقيقة سبب هذه المشكلة إلى حد كبير. وقد أشار رولين أرمر (Rollin Armour) أستاذ المسيحية في جامعة مرسر بالولايات المتحدة، إلى وجود تقارير هنا وهناك عن الإسلام، تخبر بأنه ديانة توحيدية، ومحمد ﷺ يكافح الوثنية؛ ومع ذلك فأكثر المهتمين آنذاك لم يكونوا يعيرون هذه الحقيقة اهتماما[21].

هذه التهمة – الوثنية – تبدو من أكثر الأمور إثارة للعجب! فلا تظهر الدعوة إلى التوحيد والتنزه من الوثنية واضحة في أي كتاب مقدس مثلما هي في القرآن الكريم، حيث يمتلئ القرآن بآيات التوحيد، وعدم صرف العبادة لغير الله. ومن ذلك: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ (النحل: 36)، وخطاب الله لنبيه ﷺ صريحا في القرآن: ﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ (الزخرف: 45).

بل جاء الوعيد المباشر لنبي الإسلام ﷺ من الله – تعالى – في حال وقع هو أو غيره في الشرك: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ (الزمر: 65). وفي آيات القرآن، أيضاً: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (النساء: 48)، وفيه أيضاً: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ (المائدة: 72). بل لا نكون مبالغين إن قلنا: إن معظم سياقات القرآن تدعوا للتفكر في وحدانية الله وقدرته، حتى تلك التشريعات أو القصص، أو الأمثال، تُختم في أحيان متعددة بدعوة للتوحيد. وأما الدعوة لنبذ الأصنام والأوثان فهي واضحة تماما في سياقات كثيرة في القرآن، وعلى لسان عدد من الأنبياء، كما في عدة سور، منها: (الحج: 30)، و(العنكبوت: 17و25)، و(الأنعام: 6)، و(الأعراف: 138)، و(إبراهيم: 35)، و(الأنبياء: 57). وأصبحت سورة الإخلاص إحدى أعظم سور القرآن، وهي تعدل ثلثه بآياتها اليسيرة التي تقوم ابتداء وانتهاء على التوحيد المطلق الذي ينفي الولد والشريك مع الله: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (الإخلاص: 1 – 4).

وتجريم الشرك والوثنية أوسع من أن يُحصى في القرآن الكريم، ومع ذلك فإن تصوير الإسلام بالدين الوثني عند أولئك الأقوام، يدل على أن العداوة والخصومة تعميان الأبصار والقلوب معا.

أما ما يتعلق بمحمد ﷺ فيمكن اكتشاف موقفه التوحيدي من عدة مواقف: من ذلك لما جاء وفد بني عامر، وقالوا: أنت سيِّدنا. فقال: «السيد الله، تبارك

(21) راجع: [الإسلام والمسيحية والغرب التاريخ المضطرب، تأليف: رولين آرمور]:
Islam, Christianity, and the West a troubled history, Rollin Armour, p. 57.

وتعالى». فقلنا: وأفضلنا فضلاً، وأعظمنا طولاً. فقال: «قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان»[22].

ليس ثمة شك في أن محمدا ﷺ كان سيد الأمة، لكنه خشي أن يُغلى فيه فوق قدره[23]. وتطبيقه ما جاء في القرآن: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴾ (النساء: 171).

وأما خرافة أنه كان ساحرا فهي نفس التهمة التي كررها مشركو قريش: ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ﴾ (ص: 4)، وفي آية أخرى: ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴾ (الذاريات: 52). والوصف القرآني للحالة يوضح أنها ظاهرة أممية في وصم كل من أتى بما يعجز عنه البشر بأنه ساحر. ولا نعلم: هل جاء هذا الموقف النصراني من مصادر تأثرت بالبيئة التي عاشت فيها، أم أنها التقطت خبر القرآن عن رد فعل المشركين من دعوة النبي ﷺ، ووصمهم له بأنه ساحر، وعملت على إذاعته بعد تشويه سياقه؟!

وبقدر ما في هذه الآراء من خرافة إلا أن التساؤل يتركز حول أسباب توغلها في المخيلة الأوروبية، وخاصة فيما يتعلق بتوحيد الإسلام! يُعلق «ريتشارد سوذرن» بتعليق موجز بأن: «هذه الصورة المزيفة عن العقيدة الإسلامية لم تستطع الصمود طويلا؛ إذ سُرعان ما تبين للاهوتيين النصارى أن الإسلام أكثر الديانات السماوية الثلاثة إصرارا على التوحيد، وعبادة الإله الواحد. **ويبدو لنا أن أساس التصورات الخيالية عن تعدد الآلهة في الإسلام**؛ عدم معرفة الغربيين بغير عقيدتهم هم. فما دامت هذه العقيدة تقول بالثالوث فلا بد أن تقول العقائد الأخرى – بداية – الشيء نفسه، ثم يطرأ على ذلك كله تحريف سيء يجعل الدين زائفا. وما دام المسيحيون يعبدون مؤسس العقيدة المسيحية فلا بد أن يكون المسلمون على نفس الشاكلة، فيعبدون مؤسس عقيدتهم هم! لكن هذه العبادة تتخذ أشكالا شيطانية تتناسب وفكرتهم عن محمد النبي، وعن العرب الذين اتبعوه»[24].

الترف والحياة الجنسية:

ومن غرائب ما أذيع عن دين الإسلام؛ أنه دين

(22) السنن، أبو داود، كتاب الأدب، باب كراهية التمادح، برقم (4808)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (4806).

(23) راجع: عون المعبون، شمس الحق العظيم أبادي (13/ 111).

(24) صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى، ريتشارد سوذرن ص (69).

يسمح بالدعارة والفسق في سبيل كسب الأتباع. لقد كانت دعوى التحلل الجنسي للمسلمين من أكثر القصص والموضوعات انتشارا في المؤلفات التي كتبها الأوروبيون عن الإسلام في القرون الوسطى[25].

يوضح المؤرخ الإنجليزي «مونتجمري واط» (2006م) هذه النقطة بقوله: «نظر الأوروبيون في العصور الوسطى إلى الإسلام على أنه دين يتيح الفرصة لإشباع الشهوات، وخاصة الشهوة الجنسية، وكثيرا ما كانوا يحسبون أنه لا حدود لعدد الزوجات اللاتي يمكن للرجل الزواج بهن، اللهم إلا قدرته على الإنفاق. بل إن هناك من الكتاب من كان يعلم أن الإسلام لا يبيح الزواج بأكثر من أربع نساء، كما جاء في القرآن: ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ﴾ (النساء: 3)، وكتب مع ذلك يقول: إن الحد الأقصى هو سبع أو عشر. وكثيرا ما ترجموا آيات قرآنية بحيث توحي بمعنى جنسي منفر، والآيات بريئة من ذلك. بل لقد وجد واحد على الأقل من الكتّاب آية قرآنية زعم أنها تبيح الزنى. ووجد آخرون متعة في مضاعفة التفاصيل الخاصة بالحياة الجنسية لدى المسلمين. وقيل: إن أشكالا حيوانية وغير طبيعية للاتصال الجنسي بين الأزواج يمارسها المسلمون بكثرة، ويحثون عليها. بل ذهبوا إلى أن القرآن يبيح الشذوذ الجنسي! ورأى البعض ذروة الإباحية الجنسية الإسلامية في التصوير القرآني للجنة، وتحدثوا طويلا عن الحور العين اللواتي سيكن من نصيب المؤمنين فيها. ووجدوا في ذلك فضيحة أيما فضيحة. كذلك انتقدوا بشدة حياة محمد الزوجية، وإن كانوا كثيرا ما بنوا انتقاداتهم على مبالغات أو مزاعم كاذبة»[26].

ويظهر كثيرا في كتاباتهم شبهة الحياة الجنسية التي كان يعيشها النبي ﷺ، وزعمهم أن تعدد زوجاته دليل على ولعه بهذه القضية! يبقى أن باب التشويه والاستغلال للأحداث وتوظيفها في غير سياقها بدا واضحا في مسألة زواج النبي ﷺ بعدد من النساء، في الوقت الذي تم تجاهل تلك الأسباب المتعددة والحكم المتفرعة لهذا الزواج. فالزواج آنذك وسيلة سياسية ناجحة لتأليف قلوب الأقوام الآخرين، وفي نفس الوقت كان عادة عربية معروفة، ولذا لم نجد أحدا من المشركين ذم محمدا ﷺ بأنه كثير الزواج. قد يكون من أسباب

(25) الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى الحوار والتفاهم، أليسكي جورافسكي ص (72).

(26) فضل الإسلام على الحضارة الغربية، مونتجمري واط ص (103 – 104). وفي ظني أن ترجمة حسين أمين لعنوان الكتاب ليست دقيقة. وثمة ترجمة أخرى لجابر أبي جابر حملت العنوان: « أثر الحضارة العربية الإسلامية على أوروبا»، والأقرب للمعنى: «أثر الإسلام على أوروبا في القرون الوسطى»، إذ إن نص العنوان الأصلي للكتاب هو:
The influence of Islam on medieval Europe.

ذلك الزواج أن رسول الله ﷺ يريد – أيضًا – تثبيت دعائم دولته سياسيًّا، فوثَّق علاقته لذلك بكبار رجال دولته، ولذا تزوج بنت أبي بكر، وبنت عمر، وزوج عثمان ابنتيه، وزوج عليا ابنته فاطمة رضي الله عنهم وهؤلاء كانوا خلفاء الإسلام، وولاة أمره بعد وفاته.

ومن اللافت أنه في مرحلة شبابه لم يكن مزواجا، بل لم يتزوج إلا خديجة، والتي كانت تكبره بأكثر من خمسة عشر عاما، ولم يتزوج غيرها حتى ماتت، ولما ماتت لم يتزوج بأبكار، بل كل زوجاته كن إما مطلقات، وإما مات أزواجهم عنهن، وهو الأكثر، ولم يتزوج ببكر بعد ذلك سوى عائشة بنت أبي بكر، وهو أهم أصحابه، وأقربهم له على الإطلاق[27].

كما أنه لم يعهد عنه صبوة قبل بعثته، وهو بريعان شبابه كحال أقرانه، فما كان ليستعف – عليه الصلاة والسلام – عن الشهوة قبل الرسالة، ثم يقع فيها، ويذيعها بعد الرسالة!.

العجب أن هذه القضية ثارت في أزمنة التمسك الديني الأوروبي بقيادة الباباوات، ولئن كان غائبا عن عوام الناس ما كان عليه أنبياء العهد القديم من تعدد للزوجات بسبب منع رجال الكهنوت هؤلاء العوام من القراءة المباشرة في الكتاب المقدس؛ فإن الأعجب أن رجال الكهنوت وهم يقرؤون الكتاب المقدس لم يلفت نظرهم تعدد نساء الأنبياء[28]!

أما ما يتعلق بتلك التهم الأخرى من تشريع الإسلام للزنا واللواط أو الاتصال الحيواني فهي مزاعم واهية لو كانوا يعلمون. كيف يكون ذلك والقرآن ينص على ذم هذا الأمر بشكل صريح وتام: ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ (الشعراء: 165 – 166)، والآية القرآنية الأخرى حول الزنى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴾ (الفرقان: 68 – 69). فلو كان الانتقاد النصراني الغربي ضد أصل التشريع لتعدد الزوجات أو التسري بالمملوكة؛ لكان أمرا يمكن أن نتفهم سببه، وهو تحريم التعدد في ديانتهم النصرانية، فيكون الانتقاد لما لم يألفوه في مجتمعهم، أما أن يكون الافتراء بشيء يخالف نص القرآن الصريح فهو أمر يُنبئ عن تعصبات واضحة.

(27) يبدو أن هذه المسألة تجد مكانة في الرؤية الغربية ذات الخلفية النصرانية أو العلمانية أيضا، إذ يتفقان على تحريم التعدد أيا كان. لقد ناقش عدد من الباحثين والعلماء المسلمين هذه النقطة بإسهاب. راجع مثلا: شبهات و أباطيل حول تعدد زوجات الرسول ﷺ، لـ محمد الصابوني، وأيضا: تعدد الزوجات في الإسلام، وحكمة تعدد زوجات النبي ﷺ، عبدالتواب هيكل.

(28) أفرد اللواء أحمد عبدالوهاب دراسة موسعة بعنوان: تعدد نساء الأنبياء و مكانة المرأة في اليهودية والمسيحية والإسلام ص (9 – 107).

قد يكون ذلك الفهم الخاطئ بسبب التشويه المتعمد في تفسير الآيات القرآنية عن الجنة، حيث الحور العين والزوجات. ولعل هذا هو ما دفع القديس والفيلسوف النصراني الذائع الصيت: توماس الأكويني (Thomas Aquinas) (1274م) في كتابه «الشامل في الرد على الكفرة»[29] إلى نقل الاتهامات عينها عن محمد ﷺ بأنه: «أغوى الشعوب من خلال وعوده لها بالمتع الشهوانية»، وبالتالي لم يجد البشر الشهوانيون صعوبة في اتباع تعاليمه[30].

من اللافت أن هذه التهمة استمرت – حتى عصرنا الحاضر – متغلغلة في الحضارة الأوروبية، وهي التي أصبحت تدعم، وتشرع الشذوذ والحريات الجنسية الكاملة بقوانين دولية، كاتفاقية إزالة كافة أشكال التمييز العنصري ضد المرأة «سيداو»، وما تلاها من مؤتمرات دولية تعزز الحريات الجنسية، وتدعو لاحترامها[31]!

العجب هنا أن الإسلام والمسلمين في عصرنا الحاضر أصبحوا يشكلون العائق الأكبر لتمرير هذه الحريات الجنسية حسب زعمهم. وللحقيقة؛ فإن هذه الإباحية لم تشرعها الكنائس، وإنما الحضارة العلمانية الغربية الحديثة. ومع ذلك فالذي بقي هو التصوير الجنسي لحياة المسلمين منذ ظهور الإسلام حتى اليوم!

***

المبحث الثاني

بدايات فهم الإسلام في الداخل الأوروبي

الحديث عن إمكانية وجود فهم في المخيلة الأوروبية في القرون الوسطى لا يعني بالضرورة وجود تفهُّم وقبول للإسلام بشكل مُرضي بقدر ما يعني وجود آراء تكونت ووجدت مكانا في الفكر الأوروبي تحمل صورة تبدو مخالفة للسائد عن الإسلام آنذاك، وتفتح المجال للتشكيك في الروايات الموغلة في الأوهام، والتي لا تنم عن أي شكل من أشكال البحث العلمي النزيه. وهذا التوجه يُعد ناحية إيجابية يحسن لفت الأنظار لها، لكونها في مصلحة الوصول إلى الحقيقة، وإن لم تكن في ذاتها عين الحقيقة.

ربما يصعب التحديد الزمني بين نهاية صياغة الأساطير حول الإسلام وزمن بدايات التفهم؛ ذلك أن الأساطير المتعلقة بصورة الإسلام لم تنقطع في زمن من الأزمان، بل كانت تحتد في فترة، وتخبو في أخرى،

(29) في بعض الترجمات: «خلاصة الرد على الخوارج».

(30) نقل ذلك المفكر الألماني هوبرت هير كومر. راجع: صورة الإسلام في التراث الغربي (دراسات ألمانية)، ترجمة: ثابت عيد ص (32).

(31) أقرت المحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان مسألة زواج الشواذ، واعتبرته نوعا جديدا معترفا به في تكوين الأسرة، محتجين بأنه ليس في الاتفاقيات الدولية ما ينص صراحة على أن الزواج إنما يتم بين ذكر وأنثى فقط!. راجع: القانون الدولي لحقوق الإنسان، محمد علوان، محمد خليل الموسى (2/ 295).

وبحسب ظروف كل مرحلة، إلا أن التطور هو وجود التحول الجديد الذي بدأ يحاول – بعدة أساليب – فهم الإسلام بشكل يختلف نوعا ما عما كان عليه سابقاً.

يرى بعض الباحثين أن منتصف القرن الثاني عشر هو بداية فترة يمكن تصنيفها بأنها فترة تعقل – مقارنة بالصورة السابقة فيما يتصل بالإسلام وبنبيه – تطرد التصورات الخيالية في أوساط المثقفين الأوروبيين. ويمكن ملاحظة ذلك في مؤلفات ظهرت بإنجلترا وفرنسا وألمانيا وإسبانيا في عقود متقاربة دون أن يكون هناك صلة واضحة بين المؤلفين.

وقد يُقال: إن القُصاص وأصحاب الثقافة الشعبية أكثر رجال أوروبا مشاركة وتأثيرا في نشر الصورة الخيالية حول الإسلام، وكما يعبر المستشرق الألماني شاخت من «أن الرؤية التي ترسمها الأعمال التي تخاطب عامة الناس لابد أنها قد أسهمت في تكوين الصورة التي حفظتها الأجيال اللاحقة، أكثر من الرؤية التي تبينها الأعمال ذات الصبغة الجدية والعلمية»[32]، ومع ذلك نجد بعض هؤلاء الرموز انتقد مسلمات هذا الوهم الأوروبي. مثلا نجد «فلهلم فون مالمسبري» (Wilhelm Malmesury) (الفترة 1120م) الذي يميل في رواياته ميلا صارخا للعجائب والسحريات تُشكل رؤيته للإسلام النموذج الأول للتفرقة بين وحدانية الإسلام من جهة وعبادة الأوثان والعقائد السحرية للشعوب السلافية الأوروبية من جهة أخرى، وكان «أول أوروبي» أكد على أن المسلمين لا يعبدون محمدا، بل يعتبرونه نبيا وصاحب رسالة. هذه الفترة التي عاش فيها هي أشد الفترات انتشارا للروايات الخيالية.

وفي نفس الفترة كتب بطرس دي ألفونسو (Pedro de Alfonso) سيرة للنبي ﷺ تتسم بنوع من الروح العلمية، لكن لم يكتب لها الانتشار. وإجمالا كان هنا بدايات تطور النظرة إيجابا نحو الإسلام[33].

ومن الحسن التنبيه إلى المراد بمصطلح «الروح العلمية» في النظرة الأوروبية للإسلام لا يُراد به أن هؤلاء الكتبة في القرون الوسطى أنصفوا الإسلام كما هو حقيقة، بل المراد الإشارة لبداية استخدام آلات علمية في دراسة سيرة محمد ﷺ، مثل الرجوع إلى النصوص الإسلامية أو ما كُتب في السيرة النبوية بأيدي مسلمين. وهذا واضح لمن اطلع على تلك الكتابات. لكن بالتأكيد كان الحديث عن البديهيات (كتوحيد المسلمين واحترامهم المسيح) يُعد إنجازا علميا يصادم آراء المجتمع الغربي بشكل عام، سواء المثقف أو الرأي الشعبي في تلك العصور المظلمة.

(32) تراث الإسلام، جوزيف شاخت (1/ 34).

(33) صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى، ريتشارد سوذرن ص (77) وما بعدها.

ثمة قصة ذاع صيتها لتصوير بطولي من أحد الأبطال النصارى ساهم في نشرها رموز القصة والثقافة في أوروبا، تذكر أن القديس النصراني تيمو (Thiemo) رئيس أساقفة سالسبرغ استشهد في القاهرة على أيدي المسلمين في عام 1001م، حيث كان متوجهاً للحج إلى القدس وتم أسره، وقد كان صائغا للذهب. واحتاج الملك المسلم أن يصلح الأوثان المذهبة، فطلب ذلك من تيمو الذي بدوره طلب مطرقة، ثم استغل غفلة المسلمين، ليقوم بتحطيم الأصنام التي كانوا يعبدونها!![34].

ومع ما في هذه الخبر من الكذب وقُربِه للخرافة؛ فقد وجد قبولا عاما لدى اللاهوتيين الأوروبيين الأوسطيين. لكن الذي يعنينا في سياقه هنا هو محاولة تحديد بدايات الإصلاح والبحث العلمي، حيث نجد في التاريخ الأوروبي الوسيط نقدا لمثل هذه الحادثة، فقد جاء أن أوتو فون فرايسينج Otto von Freising (ت1158م) انتقد هذه الرواية؛ ويشير إلى أن الروايات الموثوق فيها تذهب فقط إلى أن تيمو قد اشتشهد من أجل الديانة النصرانية، ويقول: «أما القول بأن تيمو قد حطم الأصنام، فيصعب تصديقه؛ لأنه من المعروف أن السارازانيين Sarazenen لا يعبدون إلا إلها واحدا، ولديهم شريعتهم السماوية... ويقدسون المضلل محمدا»[35].

إنه – في زعمه – لا ينفي أن يكون محمد ﷺ مضللا! لكنه في نفس الوقت يرفض ما يقال عنه من أساطير بعيدة تماماً عن الحقائق العلمية. وهذا ما يدعو بالضرورة إلى فهم الأسلوب الغربي عندما يتحدث عن الإسلام ونبيه. فليس كل ما جاء في معرض الثناء يعني القبول، بقدر ما يعني أن صاحبه يتوخى عدلا، وربما لا يُوفق لذلك، والعكس أيضا؛ فمن يثني على النبي محمد ﷺ في جوانب، ثم ينتقصه في جوانب أخرى، فهذا لا يعني ضرورة أن هذا الشخص يقصد الإساءة بقدر ما هو تعامل مع شخصية من الشخصيات التاريخية حسب اعتقاده العلمي.

التوجه الفكري إلى طريق الفهم، وترجمة القرآن الكريم:

قد تكون محاولة ترجمة القرآن أحد معالم بداية مرحلة فهم أولي للإسلام. وتأتي أهمية هذه المرحلة في قدرة الباحث الأوروبي على الاطلاع على أهم المصادر الدينية الإسلامية. وليست هذه الترجمات تدل ضرورة على وجود وعي أوروبي بالإسلام، بقدر ما يعني بداية التحرك نحو فهمه أكثر.

(34) يمكن مراجعة القصة وتفاصيلها ونقدها: [المسلمين كوثنيين في سجلات الحملة الصليبية الأولى]:

Muslims as Pagan Idolaters in Chronicles of the First Crusade, John V. Tolan, pp. 97 – 98 (In: Western Views of Islam in Medieval and Early Modern Europe, Michael Frassetto, David R. Blanks «Ed.»).

(35) صورة الإسلام في التراث الغربي (دراسات ألمانية)، ترجمة: ثابت عيد ص (26 – 27).

تأتي ترجمة روبرت كتون (Robert Ketton) اللاتينية للقرآن (1143م) كأحد أبرز معالم معرفة الإسلام في العالم الغربي الناطق باللاتينية. كانت هذه الترجمة تحت إشراف أحد أبرز رجال الدين الأوروبي في القرون الوسطى: «بطرس المبجل» (ت 1156م) Petrus Venerabilis [*Peter the Venerable*] لكن بطرس هذا لم يكن ذلك المنصف أو المثني على الإسلام، فهو وإن كان يرى أن العمل الفكري والإقناع هما الأكثر نجاحا مع الإسلام، وأنه لا جدوى من العمل العسكري؛ إلا أنه في الوقت نفسه كان يرى فيه هرطقة مسيحية بعيدة عن الهدى، وعنده أن النبي (أي: محمدا ﷺ) في منزلة بين آريوس – رجل الدين المطرود من الكنيسة – وبين المسيح الدجال، وأن اليهود هم من منعوه من الوصول إلى الكتب المقدسة الحقيقية، لذا ضل وتخبط[36].

وأبعد من بطرس المبجل الذي عد محمدا (ﷺ) مهرطقا أو مجدفا أو مبتدعا؛ القديس النصراني الآخر – ذائع الصيت – توما الأكويني (ت 1274م) (Thomas Aquinas) الذي عدَّ المسلمين من الوثنين، وليسوا مجرد هراطقة مجدفين، وهو عكس الصورة السائدة في عصره. وبالتأكيد فرأي توما في الإسلام والمسلمين لا بد أن يؤثر في الفكر الأوروبي آنذاك وبعد ذاك؛ نظرا لكونه استقى من الفلاسفة المنتسبين للإسلام، وقرأ لهم. لقد كتب توما بشكل محدود عن الديانة الإسلامية التي كان يرى فيها ممارسة الإكراه الديني، مما أدى إلى دخول الأمم للإسلام كُرها[37]. وقد كان

(36) لتفصيل أكثر يراجع [العرب واللاتين في العصور الوسطى: الأعداء، الشركاء، والعلماء]:

Enemies, Partners, and Scholars, Alauddin Samarrai, p. 137 (In: Western Views of Islam in Medieval and Early Modern Europe, Michael Frassetto, David R. Blanks «Ed.»). :Arabs and Latins in the Middle Ages

(37) تصور سيف الإسلام لم يكن وليدا في الثقافة الغربية، بل كان محل نقاش منذ قرون طويلة. العجب أن الكنيسة النصرانية كانت في القرون الوسطى تمارس الإكراه الديني للشعوب، لكن توما كان يُعارض هذا التوجه الكنسي في الحقيقة.

وأما ما يتعلق بدعوى انتشار الإسلام بحد السيف؛ فيمكن تقبل تضليل شعوب القرون الوسطى نظرا لعدم وجود المصادر المحايدة عن الإسلام، أما أن تستمر هذه المعضلة في الفكر الغربي حتى هذه الأزمنة، فهو الأمر الذي يُثير العجب فعلا!! وقد عبرت عن ذلك المستشرقة الإيطالية « فاغليري» بقولها: «كيف نفسر مواصلة الإسلام... تقدُّمه الحثيث في آسية وأفريقية في وجه الانحطاط العام الذي أصاب الفكرة الدينية في السنوات الأخيرة؟ إن أحدا لا يستطيع اليوم أن يزعم أن سيف الفاتح هو الذي يُمهد السبيل أمام الإسلام، على العكس ففي الأصقاع التي كانت في يوم من الأيام دولا إسلامية، تولت مقاليد السلطة حكومات جديدة تنتسب إلى أديان أخرى، وعملت في أوساط المسلمين طوال فترات عديدة منظمات تبشيرية قوية، ومع ذلك فإن الحكومات وتلك المنظمات لم تُفق إلى زحزحة الإسلام وإقصائه عن حياة الشعوب الإسلامية. أي قوة عجيبة تكمن في هذا الدين!!». (دفاع عن الإسلام، لورافيشيا فاغليري ص (40).

الأكويني يرى طريق الحوار سبيلا لهداية الأمم المخالفة، ويعارض الإكراه على الدين، لكن هذا لم يكن سببا في فهم الإسلام بقدر ما هو البحث في الإسلام عن أشياء يمكن من خلالها إقناع المسلمين بعدم جدواه، ولذا كتب كتابه: (براهين ضد الساراتيين، والإغريق والأرمن)[38].

هذ الهدف – وهو نشر النصرانية بالفكر – وإن لم يكن نبيلا في نظر المسلمين؛ إلا أن جانبه الإيجابي فتح الباب للتعرف الأوروبي على مصادر الإسلام الأولى، بعمق أكثر من ذي قبل، بعيدا عن المخيلة الشعبية الموغلة في الوهم. ويمكن ملاحظة أن معرفة الإسلام من خلال مصادره لا يُشترط أن تكون نتائجها دالة على وجود نظرة إيجابية له. فبعض الأفكار – حتى لو كانت واضحة تماماً – لا يُشترط قبولها، بل قد تصنف على أنها لطخة سوداء عند من لا يؤمن بها. فالزواج والتعدد فيه، أو زوجات الرسول ﷺ، كل ذلك صُنف على أنه شهوانية! ونشر الإسلام بالدعوة والجهاد صُنف على أنه إكراه ديني.... وغير ذلك كثير، لكن يبقى أن محاولة الوصول إلى المصادر الإسلامية هي خير من الاستمرار في الوهم التي سارت عليه أوروبا منذ سماعها بالنبي محمد ﷺ. وقد تكون هذه التحولات في الرؤية ساهمت في تطور موضوع الدراسات الأوروبية في معرفة الإسلام، وانتشر نتيجة لذلك عدة نداءات في عدم جدوى الحلول العسكرية مع المخالفين، والذي يأتي المسلمون على رأسهم.

ثمة جوانب أخرى قد يكون لها أثر مباشر في المعرفة الأوروبية، ويمكن تصنيفها على أنها مؤثرات خارجية جعلت الغرب الأوروبي يفكر مليا في علاقته مع الإسلام؛ قد يكون من أهمها المؤثر السياسي بظهور التتار كقوة عسكرية. إذ ظن كثير من الأوروبيين أنهم كانوا يفوقون قوى العالم عددا وعدة، ولكن تبين لهم خلاف ذلك عندما ظهر التتار الوثنيون، واجتاحوا الدول في آسيا وأصقاع من البلاد الإسلامية. ومع إدراك الغرب الأوروبي القوة العسكرية للتتار؛ فإنه «لم يكن لعقائدهم وزن فكري يؤبه له، وهكذا فإنهم لم يشكلوا خطرا على المسيحية الأوروبية»، لكنها فتحت أملا في وجود القواسم المشتركة بين الإسلام والمسيحية في مقابل وثنيات التتار الواضحة، والتي أظهرت مدى اتفاق الإسلام مع المسيحية في عدة مشتركات. هذه المسألة ساهمت في فهم الإسلام بشكل أكثر في الوعي الأوروبي[39].

(38) راجع الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى الحوار والتفاهم، أليكسي جورافسكي ص (82 – 84). وراجع أيضا ما كتبه المفكر الألماني هوبرت هير كومر، كما في: صورة الإسلام في التراث الغربي (دراسات ألمانية)، ترجمة: ثابت عيد ص (32).

(39) في تحليل هذه المسألة بشكل أوسع، راجع: صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى، ريتشارد سوذرن ص (86 – 87)، (90 – 95).

ومن المؤثرات الخارجية أيضا؛ الأثر الفكري للفلاسفة المنتسبين للإسلام، وخاصة ابن رشد. فقد كان الفيلسوف النصراني روجر باكون (ت 1294م) (Roger Bacon) متأثرا بالآراء الفلسفية، وكان قد اطلع على الإسلام من خلال وجهة نظر الفلاسفة المنتسبين إليه. لقد نادى باكون كثيرا بعدم جدوى القتال مع المسلمين، وعدم صلاحية القتال لفرض الفكر، وأن الطريق إلى ذلك ليس إلا بالفلسفة. لم يكن باكون ذلك الرجل المعارض تماما لفكرة الحرب كأصل، بل في جدواها مع المسلمين، وفي الوقت نفسه كان يجادل بأن تعلم اللغات والفلسفة من أجل تحويل الكفار أكثر أثرا من الإكراه الديني[40]. والظاهر أن الانفتاح الثقافي الأوروبي للنهل من العلوم الإسلامية في الأندلس كان له أثر إيجابي في معرفة أكبر وأوسع بواقع المسلمين.

لا يبدو أن معارضة باكون للحرب مع المسلمين كان لها أثر في التوجهات الأوروبية للحروب الصليبية، إلا أن دعوته للحوار والإقناع فتحت مجالا لمعرفة أوسع بحقيقة دين المخالفين وثقافتهم، خاصة أن مؤلفاته الفلسفية كانت ذائعة الصيت، مما يصحح صورا مجهولة كانت ذائعة عن الإسلام آنذاك.

هذا التطور الفكري من بعض الرموز الغربية في القرون الوسطى فتح المجال لمرحلة التأسيس العلمي لدراسة الثقافات الأخرى، وذلك بافتتاح مراكز لدراسة الإسلام واللغة العربية في الداخل الأوروبي، في القرن الثاني عشر، على يد رامون دي بينيافورتي (1275م)، ثم بعد ذلك ظهرت تحركات ريموند لول (ت 1316م) الذي أقام أربعة مراكز تعليمية للتبشير تدرس اللغة العربية، ثم أقساما بالجامعات الأوروبية، حتى استطاع أن يقنع المجمع الكنسي سنة 1311م بإصدار قانون تدريس اللغات الشرقية في أربع جامعات أوروبية. وبقيت العلاقة بالإسلام فاترة في فترة منتصف القرنين الرابع والخامس عشر[41].

بقي أخيرا إدراك أن هذه الفترة، وإن اتسمت باستمرار الحملة الشرسة على الإسلام، إلا أن تصور الإسلام ومعرفته أصبحا أكثر نضجا عما كان عليه الأمر في أوائل القرون الوسطى، حيث كانت ترتبط معرفته بوصف الكتاب المقدس لأعراق بشرية «السرازانيين»، تبعتها فترة خيالية موغلة في الأسطورة. وفي مرحلة أواسط القرون الوسطى بدأنا نجد عددا من الرموز

(40) حول باكون، يراجع: [المواقف الشعبية تجاه الإسلام في أوروبا العصور الوسطى]:

Popular Attitudes Toward Islam in Medieval Europe, Jo Ann Hoeppner Moran Cruz, p. 69 (In: Western Views of Islam in Medieval and Early Modern Europe, Michael Frassetto, David R. Blanks «Ed.»).

(41) راجع: الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى الحوار والتفاهم، أليكسي جورافسكي ص (87)، الإسلام في الفكر الأوروبي، ألبرت حوراني ص (3).

الغربيين يتحدثون عن الوحدانية في الإسلام وخرافة الرأي السائد بوثنيته. كما وجدنا – وإن كان قليلاً – بعض الأحداث التي تبين نضجا أكثر في فهم الإسلام، ربما يأتي من أبرزها رسالة البابا غريغوريوس (جريجوري) السابع Gregory VII وذلك سنة 1076م إلى ملك موريتانيا المسلم، ومما قال فيها: «يجب علينا، أنتم ونحن، أن نعطي للأمم الأخرى، في وجه متميز، مثالا على هذه المحبة، لأننا نؤمن، ونعترف بإله واحد، ولو في طرق مختلفة...»[42].

يبدو أن ثمة تطوراً في الرؤية بدأ يظهر على رموز الكنيسة آنذاك، يُظهر وعيا جديدا بأن المسلمين ليسوا وثنيين،وهم أقرب من غيرهم إلى النصرانية، والجيد هنا كون ذلك قبل فترة الحروب الصليبية. ومع ذلك فقد شكك البعض في المغزى الحقيقي لهذه الرسالة من قِبل البابا، حيث يرون أن هذه المرونة قد أبداها البابا لأهداف دينية تتعلق بالأقليات، أو اقتصادية، ناهيك أن نفس البابا أساء بشكل واضح للمسلمين في مواطن أخرى[43]. والأقرب أن إساءة البابا لا تتعارض مع رسالته إلى ملك موريتانيا، ولسنا هنا في معرض تحليل هذه الرسالة بقدر ما هو إشارة إلى التطور في الفهم الأوروبي للإسلام، وهذا الفهم لا ينفي حالة العداء والتنافس.

(42) رسائل البابا غريغوريوس السابع المنشورة في مجموعة الآباء اللاتين ص (450 – 452)، نقلا عن: الأسس اللاهوتية في بناء حوار المسيحية والإسلام، مشير باسيل عون ص (152).

(43) راجع: الإسلام في الفكر الأوروبي، ألبرت حوراني ص (4).

* * *

المبحث الثالث

شخصيات نهاية القرون الوسطى وعصر النهضة

لم يتفق المؤرخون على تحديد نهاية مرحلة القرون الوسطى نظرا لوجود نهايات في بعض الأماكن دون أخرى، ويمكن القول بأنها في القرن الخامس عشر. أيضا عصر النهضة بدأ من إيطاليا كما هو معلوم، لكن بقية أوروبا جاءت بعد ذلك، ولم تكن جميع الدول بدأت معًا في عصر النهضة[44].

نلحظ أن التوجه الفكري الأوروبي لم يدخل بعدُ في مرحلة الثناء على الإسلام وقِيَمِه، وإنما هي مطالبات لفهم أفضل لحقيقة الإسلام، وإلا فالصورة النمطية السلبية ما تزال عالقة في المخيلة الأوروبية، وما زال رموزها في فترة القرون الوسطى وما بعدها يؤمنون إلى حد بعيد بالصورة القديمة للإسلام، إلا أن المرحلة الأسطورية لصورة الإسلام تكاد تتوارى، وبقي انتقاد الإسلام يكمن في التشويه لواقعه، وعدم محاولة فهمه الفهم الدقيق، وفي نفس الوقت لا يمكن تجاهل أن التصريح بفضل الإسلام وتمجيد محمد، خرج بشكل

(44) قصة الحضارة، ول ديورانت (18/ 1) وما بعدها.

صريح من شخصيات عصر النهضة. تبدو القيمة الأهم لهذه الفترة في أنها تمثل تحولا جذريا من مرحلة الجهل بالإسلام إلى مرحلة أكثر تطورا؛ تتمثل في مرحلة ما بعد القرون الوسطى حيث ظهرت مفردات وكتابات تدل على ثناء مباشر على الإسلام ونبيه.

في هذا المبحث تظهر أهمية الحديث عن أبرز الشخصيات المؤثرة في فترة نهاية القرون الوسطى، وهي الشخصيات الدينية من حركة الإصلاح البروتستانتية والتي خالفت الاتجاه الكاثوليكي الغربي السائد في أوروبا، ذلك أن التوجه الكاثوليكي لم يتطور عما سبق بشكل كبير، كما أن هذه الشخصيات كونت أبرز حركات التجديد في الفكر النصراني الديني الغربي، وهي في نفس الوقت اطلعت على تراث الإسلام بشكل أو آخر.

من أبرز تلك الشخصيات، الإنجليزي: جون ويكلف John Wycliff (1384م)، والشخصية الأخرى الأشهر، وهو الألماني: مارتن لوثر Martin Luther (1546م).

المطلب الأول: جون ويكلف:

يعد ويكلف من الرموز المؤثرة في البيئة الأوروبية الكاثوليكية؛ فهو من رموز حركة الإصلاح الديني في أوروبا. أما ما يتعلق بعلاقته بالإسلام فلم يكن ذلك الرجل الملم به، بل لم تكن الرؤى التي يحملها عنه إيجابية، إذ كان منتقداً – كغيره من فلاسفة ورجال دين تلك الفترة – للإسلام ونبيه، بنفس أسلوب النقد الذي كان يوجهه للكنيسة الكاثوليكية. لقد كان ينتقد الكاثوليك بقوله: «إننا محمديون غربيون»، ويكفي هذا التعبير في بيان مدى سوء صورة الإسلام آنذاك، والذي كان ويكلف يستغلها في الهجوم على رجال الكنيسة الكاثوليكية، إذ يلحظ فيهم الانتقائية لما يهوونه من الكتاب المقدس كما فعل محمد (ﷺ) تماما – حسب زعمه – عندما استل منه ما شاء وانتقد ما لم يرغبه!! ومحمد أيضاً – حسب اعتقاده – كان يحرم مناقشة آرائه، كما هم رجال الكنيسة.

من العجيب أن هذه الشبهة – وهي الاستلال من الكتاب المقدس – لم تتزحزح عبر القرون النصرانية، بل استمرت تتكرر حتى عصرنا الحديث، مع اختلاف التوجهات الفكرية في طرحها بين دينية وعلمانية. وهذا الموضوع مبني على اعتقاد الغرب بأن محمدا ليس بنبي أصلا! ويختلفون في تصنيفه بعد ذلك. فهم يرون أن ثمة تشابها بين شخصيات كتابهم المقدس وبين شخصيات القرآن الكريم، ويرون توافقا في عدد من الوقائع والأحداث والتشريعات؛ من هذا ظهرت لهم هذه الشبهة بأن دور محمد لم يعدُ أن يكون نقلا مشوها لتشريعات الكتاب المقدس[45]!

(45) سبق الإشارة في المبحث الثاني من هذه الدراسة إلى رؤية بطرس المبجل حول استقاء محمد ﷺ من الكتاب المقدس بصورة=

فدعوى الاقتباس القرآني من أسفار أهل الكتاب شبهة متجددة، تعود إلى جذر واحد، وهو أن التشابه بين القرآن الكريم والكتاب المقدس إذا لم يُفسَّر بأنّ الرسول ﷺ قد أخذ من أسفار أهل الكتاب مباشرة أو بطريق واسطة، فإنّه لا دلالة أخرى له غير الإقرار أنّ مصدر هذا التشابه هو الوحي الربّاني.. وإذا كان لا مجال عند القوم للتسليم بربّانية القرآن.. فلا محيص عن إعلان الاقتباس القرآني المدّعى.. والهدف هو إسقاط ربّانية القرآن، وافتراء بشريته المزعومة.. فكانت نهاية الدعوى؛ هي مبتدأ الفكرة![46].

لذا يبدو تناول المسلمين لهذا المسألة يختلف عن أسلوب الكتبة الغربيين؛ لأن المسلمين يرون أن الإسلام امتداد للرسالات السماوية السابقة؛ ولذا لا غرابة في تشابه مواطن متعددة من نصوص الكتب المقدسة أو قصصها، إذ القرآن جاء مستكملا للكتب قبله، ويسد ما فيها من نقص، ومفهوم الخطاب القرآني يشير لهذا التسلسل: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ (المائدة:44)، وفي آية تالية: ﴿ وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ (المائدة:46)، ثم جاء الموقف القرآني يبين علاقة الإسلام وكتابه بالإمم السابقة من أهل الكتاب: ﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ ﴾ (المائدة:48). قال المفسر أبو حيان الأندلسي: «لما ذكر – تعالى – أنه أنزل التوراة فيها هدى ونور... ثم ذكر عيسى، وأنه آتاه الإنجيل، فذكره؛ ليقروا أنه من جملة الأنبياء؛ إذ اليهود تنكر نبوّته، وإذا أنكرته أنكرت كتابه، فنص – تعالى – عليه، وعلى كتابه. ثم ذكر إنزال القرآن على رسول الله ﷺ، فذكر الكتاب ومن أنزله، مقرّراً لنبوّته وكتابه؛ لأن الطائفتين ينكرون نبوته وكتابه»[47].

وهذا ليس بالأمر الخفي في سيرة نبي الإسلام، فقد قال أبو هريرة: كان أهلُ الكتابِ يقرؤون التوراةَ بالعبرانيةِ، ويفسرونَها بالعربيةِ لأهلِ الإسلامِ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «لا تصدقوا أهلَ الكتابِ، ولا تكذبوهم، وقولوا: (آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل

=مشوهة، وذلك بسبب اخفاء اليهود الكتب الحقيقية عنه.

(46) راجع دراسة موسوعية فريدة في هذا الباب: (هل القرآن الكريم مقتبس من كتب اليهود والنصارى)، للباحث سامي عامري، ص35 وما بعدها.

(47) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي (3/ 512).

إليكم)[48]. وهذا إشارة إلى الآية القرآنية: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ (العنكبوت: 46).

وهذا مفهوم تماما من سياق الأحاديث النبوية، ومنها: «أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات[49] أمهاتهم شتى، ودينهم واحد»[50].

بقي أمر يثير الانتباه؛ وهو التحول في النظرة إلى الإسلام من رموز الطائفة البروتستانتية (ومنهم ويكلف) في مسألة شخصية المسيح الدجال، حيث يرون أن خروجه سيكون من داخل الكنيسة، وليس هو شخصا خارجها، كما هي تصورات الكاثوليك. ربما يكون هذا تطوراً في نزع تهمة المسيح الدجال عن نبي الإسلام أو دينه، بيد أن الفكرة الجديدة التي أضافها وأكد عليها ويكلف – وهي التي تعد نمطا جديدا في التفكير الغربي حول المسلمين وغيرهم – إمكان خلاص ونجاة غير المسيحيين، ومنهم المسلمون. ولا شك أن هذه المسألة لها أثر في تحول الأنظار إلى الأديان الأخرى، وقد يكون الإسلام هو الأقرب، لظهور مفاهيم التوحيد بشكل واضح في دعوته[51].

المطلب الثاني: مارتن لوثر:

مارتن لوثر أبرز رجال الإصلاح البروتستانتي، وبه اصطبغ المذهب الإنجيلي أكثر من غيره لمواقفه الواضحة ضد الكنيسة. كانت مواقفه من الإسلام مضطربة، تشتد حينا، وتضعف حينا آخر، بحسب إحساسه بخطر التهديد الإسلامي الذي كانت تمثله الدولة العثمانية. ولا يشك الباحثون في أن همه الأول كان توجيه النقد للداخل الكنسي، وقد استأثر هذا بمعظم أعماله، حتى أضحى رمزا ضد الكنيسة.

في سياق تحرير موقف لوثر من الإسلام، من المهم أن نستعين بشهادة إحدى مقالات مجلة العالم الإسلامي – التي كان يحررها «صموئيل زويمر» Samuel Zwemer (1952م) – وهو المستشرق المتخصص بالإسلام والتبشير بالنصرانية في أرجاء العالم الإسلامي، فتقول المجلة في المقالة المعنونة بـ: «موقف لوثر تجاه الإسلام»:

«هناك الكثير من الإيذاء والسباب، لكن هناك

(48) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب: قولوا آمنا بالله... برقم (4215).

(49) المعنى أن الأنبياء بعثوا متفقين في أصول التوحيد متباينين في فروع الشرع.

(50) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ ﴾، برقم (3259).

(51) راجع آراء ويكلف حول الإسلام في: صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى، ريتشارد سوذرن ص (123 – 130). وسياتي مزيد بحث لهذا النقطة التطورية.

البعض – من مثل ريموند لول Raymund Lull أو بطرس المبجل Peter Venerable – حاولوا حث المسيحيين على التبشير والعمل بين المسلمين[52]. وعلى النقيض وُجد في الوقت الحديث – عصر العقلانية فيما يتعلق بالإسلام – أنه نوع من التنوير والتفكير الحر. بين هذين الرأيين المتشددين، يقف مارتن لوثر والذي تغلغل بحصافة لافتة إلى دين الأتراك وبقدر الوسائل المتاحة له، ليحصل على الحكم العادل بدون أن يتجاهل وجهة نظره المسيحية»[53].

ويبدو أن موقف مارتن لوثر فيما يتعلق بالإسلام كان متنوعا حسب الفترة والحالة السياسية في أوروبا. ففي دراسته المعمقة عن لوثر؛ يشير الدكتور محمد أبو حطب – أستاذ اللغة الألمانية (لغة لوثر) – إلى نتيجة مفادها ندرة الدراسات حول موقف لوثر من الإسلام. كما يذكر أن الخطر العثماني الزاحف على فينيا عاصمة أوروبا جعل الغرب – ومنهم لوثر – يحاول أن يفهم الإسلام أكثر، وحاول لوثر ترجمة القرآن بنفسه، لكنه لم يستطع لعدم المعرفة بالعربية، لكنه دعم ترجمة أخرى للقرآن، اضطلع بها صديقه الراهب «بلياندر» عام 1543م. وقد كافح لوثر من أجل إخراجها، وقدم لها بمقدمة طويلة، وكان يرى أن ترجمة القرآن هي أقصر الطرق لإيضاح كم يحوي من زيف وأساطير، وهي سلاح في وجه الأتراك عندما يسخرون من النصرانية!!

لوثر في نظرته للإسلام أيقن أنه ديانة توحيدية، لكنها لا تؤمن بالثالوث النصراني، وهو ما أثار غضبه على الإسلام، مما يعني أن تصوره للإسلام أصبح أكثر نضجا من ذي قبل، بالرغم من أن مصادره حول الإسلام هي المصادر عينها التي عادة تصور الإسلام بصورة قبيحة[54].

ويوضح المفكر الألماني هوبرت هير كومر موقف لوثر العدائي من الإسلام قائلا:

«إن لوثر البروتستانتي – الذي أهان نبي الإسلام بلا أدنى حياء أو تأنيب ضمير، واصما إياه بأنه خادم العاهرات وصائد المومسات – كان ينظر إلى قرآن مترجم إلى اللاتينية في عصر الحروب التركية، على أنه وسيلة مثالية لتسليح القلوب اليائسة للمسيحيين»[55].

(52) سبق تفصيل موقفهم في المبحث الثاني.

(53)
Luther's Attitude Toward Islam, G. Simon, *The Moslem World,* V. 21, p. 257, July 1931.
And see also: Western Views of Islam in the Premodern Period: A Brief History of Past Approaches, David R. Blanks, p. 17 (In: Western Views of Islam in Medieval and Early Modern Europe, Michael Frassetto, David R. Blanks «Ed.»).

(54) راجع للتوسع في موقف لوثر حول الإسلام من خلال عدة دراسات غربية جمعها وترجمها محمد أبو حطب في كتابه: مارتن لوثر والإسلام، ص (220 – 257).

(55) صورة الإسلام في التراث الغربي (دراسات ألمانية)، ترجمة: ثابت عيد ص (21).

والتساؤل هنا في تفسير سبب هذا الموقف اللوثري! لا يمكن نسيان عدد من المقولات حول تأثر الحركة البروتستانتية اللوثرية بمفاهيم الإسلام، بمعنى أن لوثر كان مطلعا على علوم الإسلام، ولم يكن جاهلا بها، وهذا يدل وجود حالة تعبئة ضد الإسلام وخطرة. بالتأكيد أن حالة العداء بين أي طائفتين تؤدي إلى نتائج غير دقيقة، بل تكون مجحفة بشكل كبير في النظر للطائفة الأخرى.

المطلب الثالث: عصر النهضة والعقل:

يبدو أن عصر النهضة في القرون السابع عشر إلى التاسع عشر بدأ يخطو أبعد عن سلطة الكنيسة أو السلطات الدينية عموما، وربما ساعد هذا الأمر على حرية واستقلال للمفكر الأوروبي. بدأت في تلك الفترات ردود أفعال متعددة ضد الدين النصراني داخل أوروبا كدين مارس اضطهادا للحريات، وتحجيرا للمبتكرات، مما ساعد على وجود حالة من النقد واللوم لضيق الأفق الذي كان يمارسه رجال الدين وقت ذاك، وفي ظني أن هذا ساهم في بناء معرفة أكثر للآخر غير النصراني، وخاصة المسلم، حيث النقمة على الحالة الماضية تولد البحث عن شواهد في إثبات الانحراف.

وعلى الرغم من أن عصر الأنوار أخرج الغرب من قبضة الكنيسة وتحجرها؛ إلا أن الفكر الغربي لم يستطع التخلص نهائيا من العقلية اللاهوتية التي وقفت من الإسلام موقف النابذ والمعادي. وبقدر ما كان خطاب هذا العصر في حق الإسلام والمسلمين خطابا لاهوتيا، كان أيضا خطابا تلفيقيا، يطبعه التردد والتذبذب بين المدح والإعجاب من جهة، والذم والسخرية من جهة أخرى، حتى إنه أصبح من غير الممكن الحكم على أحد من فلاسفة عصر النهضة والأنوار بأنه متعاطف مع الإسلام كلية، أو أنه متعصب ضده تعصبا تاما، وبقدر ما يتم الاستشهاد بالواحد منهم بكونه مدح الإسلام وأشاد به، يتم الاستشهاد به مرة أخرى على أنه أساء إلى الإسلام، ووصفه بأقبح الأوصاف، وهكذا يمكن القول بأن فلسفة عصر الأنوار قد ظلت حبيسة رؤية مترددة ومتناقضة[56].

إن من مميزات خطاب عصر النهضة التي فاق بها غيره؛ تلك اللغة الجديدة في الثناء على الإسلام ونبيه. صحيح أن هذا الثناء لم يكن غالبا أو موازيا للقدح، لكنه شكل اتجاها جديدا في تلك العصور، حيث بدأت فكرة الاطلاع على مصادر الإسلام الأصلية بشكل أكبر وأعمق. واللافت هو ذلك الموقف الذي يمكن أن نقفه

(56) راجع مقالة علمية بعنوان: الأسباب التاريخية للصور النمطية السلبية عن الإسلام والمسلمين في الوعي الجمعي للمجتمعات الغربية، وسبل تجاوزها ومواجهتها. حسن عزوزي. ورقة عليمة على موقع: مركز الدراسات والأبحاث في مجال تصحيح صورة الإسلام:
http://www.cercii.ma/Etudes%20et%20Recherche.php

من تلك التناقضات التي تصدر من البعض بين ثناء وقدح يحصل من بعض الأشخاص؛ ولذلك نماذج، من أبرزها ما حصل من الفيلسوف الشهير: فولتير، عندما قدم مسرحيته المشهورة «التعصب» والتي صور فيها حياة النبي محمد ﷺ، لكنه بعد سنين ألَّف فولتير كتابه «بحثٌ في العادات» عام 1765م، أشاد فيه بمحمد ﷺ وبالقرآن، وقال: «إنَّ محمداً مع كونفوشيوس، وزرادشت أعظم مشرعي العالم» على حد تعبيره. كما أنه في عام 1751م نشر كتابا بعنوان «أخلاق الأمم وروحها»، دافع فيه عن محمد ﷺ باعتباره مفكراً سياسياً عميق الفكر، ومؤسس دين عقلاني حكيم، ومشيراً إلى أن الدول الإسلامية كانت تتمتع دائماً بالتسامح الذي خلا منه التقليد النصراني تاريخياً[57].

هذا فقط نموذج متكرر لوجود ثناء مع نقد في نفس الوقت، وإن كان هذا النقد مما يؤذي المسلم، لكنه في نفس الوقت يُعد تطورا نوعيا وقفزة في الموقف من الإسلام عموما. إلا أنه مما ينبغي العناية به هنا تحليل أسباب هذه المواقف التي تبدو متناقضة، وفي ظني أن أولئك الأقوام عاشوا في بيئة تحمل إرثا ثقافيا هائلا حول الإسلام بشكل مغلوط تماما، وسخيف جدا في أحيان كثيرة، ولا يقبل فكرة تميز الإسلام التي وصفها موتجمري واط بقوله: «أدركَ الناسُ منذ زمن أنَّ الكُتَّاب المسيحيين في العصر الوسيط خلقوا صورةً للإسلام، هي صورة شائهة من وجوه عديدة، غَيْرَ أنَّ جهودَ الباحثين خلال القرن الأخير قد مهَّدت السبيل؛ من أجلِ تكوين صورة أكثر موضوعيَّة له في عقول الغربيِّين»[58]. لذا يمكن النظر في تلك الرؤى أن مصادرها مختلفة الثقافة، وهي تُعد تطورا كبيرا عما سبق. خاصة إذا ما أيقنا أن الصوت المثني أو المنصف ما زال خافتا حتى في عصر النهضة.

أمر آخر في موضوع الثناءات الغربية؛ وقد أشار لذلك د. عبدالمحسن عبد الراضي في دراسته المعمقة: «الرسول الأعظم ﷺ في مرآة الغرب»، أن الأقوال والأحكام الغربية يرجعون فيها إلى مرجعيات ومقاييس تتلاءم مع معطيات الفكر الغربي التي نختلف معها ونرفضها انطلاقا من كون النبي ﷺ رسولا من الله، لكنها في نفس الوقت ربما لم تكن بدافع التشويه أو سوء الغرض، لكنها كانت نتيجة الثقافة السائدة في الدوائر العلمية والفكرية في الغرب[59].

(57) راجع مقالة: حقيقة موقف الفيلسوف الفرنسي فولتير من رسول الله محمد ومن رسالته، خالد الشايع، صحيفة الشرق الأوسط، الثلاثاء 06 جمادى الثانى 1429 هـ 10 يونيو 2008 العدد (10787).

(58) فضل الإسلام على الحضارة الغربية، مونتجمري واط ص (8).

(59) الرسول الأعظم ﷺ في مرآة الغرب ص (19)، وصلب هذه الدراسة في سبيل سياق نصوص غربية ونماذج منها من فترة=

هذا توجه موجود عند بعض الدارسين، وأن سبب وجود المتناقضات أحيانا يرجع إلى جهل المفكرين الغرب، أو بيئة النشأة وصورة الإسلام فيها، وفوق ذلك أنهم ليسوا بمسلمين أصلا، وغير ذلك[60].

وثمة توجه آخر يمثله عدد من الباحثين يرى أن المعتدل من المستشرقين – وإن كان ظاهره الإنصاف للإسلام والمسلمين فى العلوم الشرعية – فقد دس السم فى الدسم، وأن تمجيد الإسلام فى كتب المستشرقين يقصد به إيجاد جوٍ من الاطمئنان إلى نزاهة الفكر الغربى من ناحية، ومقابلة هذه المجاملة من جانب المستشرقين بمجاملة مثلها من جانب المسلمين للقيم الغربية»[61].

***

الخاتمة والنتائج والتوصيات

1 – مازالت الرؤى حول الإسلام ونبيه متطورة عبر القرون؛ فقد كانت القرون الأولى جاهلة تماما للحالة الإسلامية، وكانت مصادرها عادة من النصارى الشرقيين، أو من دولة الأندلس.

2 – كانت التصورات الأولى عن الإسلام تنبني على أنه دين وثني، والمسلمون ليسوا إلا وثنيين يعبدون محمدا، مما صورة مشوهة جدا، استُمدت من بعض نصوص الكتاب المقدس.

3 – الصورة المشوهة عن الإسلام، لم تنقطع عبر القرون، إلا أنها تضعف وتقوى بحسب الظروف الراهنة وخاصة في العلاقة العسكرية مع المسلمين.

4 – أولى فترات التعقل الأوروبي لفهم أكثر للإسلام كانت على يد فلهلم فون مالمسبري في القرن الثاني عشر، حيث بدأ يميز بين وحدانية الإسلام، ووثنية الأمم الأخرى داخل أوروبا.

5 – النظرة للإسلام تحسنت على نحو إيجابي كبير في عصر النهضة الأوروبية بتأثير من تقرير حرية الرأي، مما حدا بعدد من فلاسفة القرون الوسطى للاتصال المباشر بتراث المسلمين، واكتشافه أكثر.

6 – النظرة إلى الإسلام متطورة، فالإسلام في هذا العصر أصبح أكثر وضوحا من ذي قبل مع استمرار الهجمة عليه. وهذا التطور يدفعنا إلى بيان المظهر الحقيقي للإسلام في المجتمعات الغربية، إلا أن هذا البحث هو أوسع بكثير مما يمكن تصوره في دراسة مختصرة كهذه؛ إذ ثمة جوانب كثيرة تحتاج دراسة أوسع.

7 – هناك حاجة ماسة إلى القراءة المباشرة في المصادر النصرانية القديمة والتي تحدثت عن الإسلام.

=عصر النهضة وما بعده، ولم يكن منهجها القراءة التحليلية للموضوع.

(60) راجع في هذا مقالة علمية بعنوان: كيف نفهم أخطاء المستشرقين، محمد إلهامي (على مدونته الشخصية): http://melhamy.blogspot.com/2009/07/blog – post.html

(61) لتوسع أكثر حول هذا الرأي، يُراجع: السنة النبوية في كتابات أعداء الإسلام: مناقشتها والرد عليها. عماد السيد الشربينى (1/ 178) وما بعدها.

يمكن من خلالها تحليل هذه النظرة أكثر؛ إذ غالب الدراسات المعاصرة – حسب اطلاعي – ما زالت في حيز نقل الفكرة العامة.

***

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المراجع العربية أو المترجمة:

الأسباب التاريخية للصور النمطية السلبية عن الإسلام والمسلمين في الوعي الجمعي للمجتمعات الغربية وسبل تجاوزها ومواجهتها. عزوزي، حسن. ورقة علمية في موقع: مركز الدراسات والأبحاث في مجال تصحيح صورة الإسلام: http://www.cercii.ma/Etudes%20et%20Recherche.php

الأسس اللاهوتية في بناء حوار المسيحية والإسلام. عون، مشير باسيل. ط1، لبنان: دار المشرق، 2003م.

الإسلام في الفكر الأوروبي. حوراني، ألبرت. ترجمة: أنس مكتبي. ط1، الرياض: جامعة الملك سعود، 2011م.

الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى الحوار والتفاهم. جورافسكي، أليسكي. ترجمة: خلف الجراد. ط2، بيروت: دار الفكر المعاصر، 2000م.

تراث الإسلام. شاخت، جوزيف. ترجمة: محمد السمهوري. د. ط، الكويت: عالم المعرفة، 1985م.

تعدد الزوجات في الاسلام وحكمة تعدد زوجات النبي ﷺ. هيكل، عبدالتواب. د.ط، الرياض: مكتبة الحرمين، د.ت.

تعدد نساء الانبياء و مكانة المرأة في اليهودية والمسيحية والإسلام. عبدالوهاب، أحمد. ط1، القاهرة: مكتبة وهبة، 1989م.

تفسير البحر المحيط. أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف. تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض. ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1422هـ – 2001م.

الجامع الصحيح المختصر. البخاري، محمد بن إسماعيل. تحقيق: مصطفى ديب البغا. ط3، بيروت: دار ابن كثير، 1407هـ، 1987م.

حقيقة موقف الفيلسوف الفرنسي فولتير من رسول الله محمد ومن رسالته. الشايع، خالد. صحيفة الشرق الأوسط، الثلاثاء 06 جمادى الثانى 1429هـ 10 يونيو 2008م العدد 10787.

دفاع عن الإسلام. فاغليري، لورافيشيا. ترجمة: منير البعلبكي. ط2، بيروت: دار العلم للملايين، 1963م.

الرسول الأعظم ﷺ في مرآة الغرب. عبدالمحسن، عبد الراضي محمد. إشراف: د. عادل الشدي، د.ط، السعودية: الهيئة العالمية للتعريف بالرسول ﷺ ونصرته، د.ت.

الروض الأنف. السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن. تحقيق: عمر عبد السلام السلامي. ط1، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1421هـ – 2000م.

السنة النبوية في كتابات أعداء الإسلام مناقشتها والرد عليها. الشربيني، عماد السيد محمد إسماعيل. ط1، د.م: د.ن، 1422 هـ – 2002 م.

السنن. أبو داود السجستاني، سليمان بن الأشعث. د.ط، بيروت: دار الكتاب العربي، د.ت.

السيرة النبوية. ابن هشام، أبو محمد عبدالملك بن هشام الحميري البصري. تحقيق: مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ الشلبي. ط2، القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1375هـ – 1955م.

شبهات وأباطيل حول تعدد زوجات الرسول ﷺ. الصابوني،

محمد. د.ط، طبع على نفقة السيد حسن عباس شربتلي، د.م: د.ن، 1400هـ ـ 1980م.

صورة الإسلام في التراث الغربي (دراسات ألمانية). عيد، ثابت. د.ط، القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، 1999م.

صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى. سوذرن، ريتشارد. ترجمة: رضوان السيد. ط1، بيروت: دار المدار الإسلامي، 2006م.

عون المعبود شرح سنن أبي داود. أبو الطيب، محمد شمس الحق العظيم آبادي. ط2، بيروت: دار الكتب العلمية، 1415هـ.

فضل الإسلام على الحضارة الغربية. واط، مونتجمري. ترجمة: حسين أمين. ط1، القاهرة: مكتبة مدبولي، 1983م.

القانون الدولي لحقوق الإنسان. علوان، محمد. والموسى، محمد خليل. ط1، عمّان: دار الثقافة، 2006م.

قصة الحضارة. ديورانت، ول. ترجمة: زكي نجيب محمود. د.ط، بيروت – تونس: دار الجيل، المنظمة العربية للتربية، د.ت.

كيف نفهم أخطاء المستشرقين. إلهامي، محمد. مقالة علمية على مدونته الشخصية:

http://melhamy.blogspot.com/2009/07/blog – post.html

مارتن لوثر والإسلام. أبو حطب، محمد. ط1، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2008م.

الملل والنحل. الشهرستاني، عبدالكريم بن أبي بكر. تحقيق: محمد سيد كيلاني. ط4، بيروت: دار المعرفة، 1404هـ.

منصور بن سرجون المعروف بالقديس يوحنا الدمشقي. نصر الله، جوزف. ترجمة: أنطون هبي. د.ط، بيروت: منشورات المكتبة البولسية، 1991م.

هل القرآن الكريم مقتبس من كتب اليهود والنصارى. عامري، سامي. بحث منشور إلكترونيا على موقع: مبادرة البحث العلمي لمقارنة الأديان:

http://www.arcri.org/index.php/ar

ثانيا: المراجع الأجنبية:

Armour, Rollin. Islam, Christianity, and the West a troubled history. New York: Orbis books.

Bennett, Clinton. In search of Muhammad. London: Biddles Ltd,1999.

Daniel, Norman. Islam and the West: The Making of an Image. Scotland: Edinburgh University Press, 1962.

Frassetto, Michael & Blanks, David. Western Views of Islam in Medieval and Early Modern Europe.London: Palgrave Macmillan,1999.

Luther's Attitude Toward Islam, G. Simon, The Moslem World, online V.(21), Is. (3), p. 257–262, July 1931.

Review of Clinton Bennett, In Search of Muhammad and In Search of Jesus, Ahmad Shafaat: (See: Islamicperspectives.com)

Russello, Gerald. Christianity and European Culture (Selections from the Work of Christopher Dawson). United States Of America: Ralph Brown Draughon Library, Aubrun University.

Tolan, John. Medieval christian perceptions of islam. New York & London: Garland Publishing, Inc. , 1996.

Tolan, John. Saracens: Islam in the medieval European imagination. New York: Columbia University Press, 2002.

***